

تأملات في المجتمع

- ١ . المسرح الكبير.
- ٢ . الغيبة.
- ٣ . المرأة.
- ٤ . علاقة المسامحة والمشاحة.
- ٥ . حكومة الأخلاق.
- ٦ . العدالة والحرية.
- ٧ . قليل من السياسة.
- ٨ . الزمن.
- ٩ . الربا ولحوم السباع.
- ١٠ . إدارة الفراغ.
- ١١ . الأسعار فلسفة حياة.

المسرح الكبير

١

المسرح الكبير

يفرض أي مجتمع إنساني على أفراده أنماطاً من السلوك تنسجم مع منظومة قيمه ومعتقداته، ولكن المجتمعات البشرية تختلف عن بعضها في استبدادية هذه الأنماط وقسوة العقوبة التي تنزل بالمخالفين.

المجتمع العربي (النجدي بشكل خاص) يبالغ في فرض أنماط محدودة من السلوك بما فيها أساليب الكلام والمظهر العام... إلخ إلى درجة تجعل الإنسان الذي يخشى النقد أو يرغب في العيش بسلام يلتزم بشكل صارم بهذه الأنماط (راجع قائمة الواجبات في فصل تقدير الذات).

وأصبح من الصعب على الإنسان أن يكون نفسه كما يجب، بل اضطر كل إنسان إلى أن يؤدي دوراً يعتقد أن المجتمع يكافئه على القيام به، ويبالغ بعضهم في هذا التقمص، لدرجة يمكن تشبيهها بالتمثيل على خشبة مسرح. فتحولت شوارعنا وحاراتنا وأسواقنا إلى ما يشبه المسرح الكبير والمخرج (المجتمع) يوزع الأدوار، ويحدد النصوص، ويعاقب الخارجين عن النص.

الثمن الذي ندفعه مقابل إنتاج هذه المسرحية العبيثية باهظ جداً. اختفاء الإبداع وظهور الأمراض النفسية وغياب وتهميش للسعادة.

يتساءل بعض المسافرين عن سر تلك النشوة التي تهبط عليهم عند وصولهم إلى بلد المقصد (المعني هنا المسافرون الملتزمون ظاهرياً ببعض الضوابط) وأعتقد أن ذلك الشعور اللذيذ منبعه هو التمتع بالإجازة الحقيقية من التمثيل، وهو العمل الذي يفرضه المجتمع بشكل مستمر.

محاولات الخروج من المسرح دون مغادرة المجتمع تتسبب في عقوبات صارمة. ومن المعروف في علم النفس الإكلينيكي أن الحاجة البشرية للقبول والخوف من الرفض أحد المحددات الكبيرة للسلوك البشري.

إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع (المخرج) لمن يرفض التمثيل في المسرح هي إطلاق الألقاب القبيحة. حاول أن تتذكر بعض زملائك في المتوسطة أو الثانوية أو بعض الأشقياء في الحارة ممن كانت لديهم نزعة فردية استقلالية، فستجدهم الأكثر تعرضاً للألقاب (تسمى في عامية نجد المعايير ومفردها: معيارة) وقد فطن إلى ذلك عبدالله المحيميد في كتابه الجميل (نقشير).

إن الصعود لخشبة المسرح الاجتماعي الكبير بشكل يومي ودون انقطاع أمر بالغ الصعوبة مرهق نفسياً مكلف اقتصادياً مستنزف للطاقات قانع للإبداع. بل إن العبادة الخالصة المجردة تصبح صعبة المنال.

يذكر أحد الإخوة أنه يشعر بمتعة مضاعفة في الصلاة، عندما يكون خارج مجتمعه أو في البر، حيث لا يجد الشيطان مدخلاً، ويصبح الإخلاص أمراً أقرب للتحقيق.

هل من حل يريحنا (ولو جزئياً) من هذا العناء اليومي المتصل، ويخلصنا من هذا المخرج (المجتمع) المستبد؟

أعتقد أن من المستحيل التمتع بالروابط الاجتماعية الرائعة التي ينميها، ويدعمها المجتمع وبنية الأسرة المتناسكة وفي الوقت نفسه التخلص من الفضول والرقابة الاجتماعية المستمرة والسلبية.

وتجربة المجتمعات الغربية تشهد على أن تحقيق قدر كبير من الحرية الفردية والتخلص من الرقابة الاجتماعية الصارمة أو بحسب عنوان هذا الفصل الخروج من

المسرح أو إغلاقه تماماً قد كلف المجتمع تكاليف باهظة جداً، وسبب ضعفاً كبيراً في بنيته وعلاقة أفرادهِ. وقد صدر كتاب جميل بعنوان:
(THE PARADOX OF CHOICE) للكاتب (Barry Schwartz).

يخالف الفكرة السائدة في القيم الغربية التي تقول: إن مزيداً من الحرية يضيف مزيداً من السعادة، فقد كشف الكاتب عن ظاهرة مهمة تقول: إن المجتمعات التي تفرض بعض القيود على أفرادها أكثر سعادة.

إحدى القواعد الرائعة في ديننا هي الحديث الشريف: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) إلا أننا نتصرف تماماً عكس مقصد هذا التوجيه النبوي الكريم.

فأصبحنا ننفق كثيراً من الجهد والوقت في أعمال رقابية غير مدفوعة الأجر، بل أحياناً نقوم نحن بالعمل، وندفع الأجر، فممارسة الرقابة وانتقاد الآخرين وإصدار الأحكام عليهم فضلاً على أنها تقيّد الحريات، وتشل متعة الحياة فهي أيضاً عملية مكلفة نفسياً كما تشير بحوث علم النفس الإكلينيكي.

في اعتقادي أن كثيراً من التعاسة في المجتمع اليوم مصدرها صعود خشبة المسرح وأداء الأدوار كما يريد المخرج (المجتمع) لا كما يريد الإنسان نفسه.

لا بد هنا من إشارة واضحة إلى أن بعض القيود ومحددات السلوك منبعا نص ديني قطعي الثبوت والدلالة، وهذه لا مجال لبحثها، بل نجزم أن مردودها على حياة الإنسان أكبر بكثير من تكاليفها الظاهرة علاوة على أنها رصيد للحياة الآخرة.

ولكن مع الأسف الشديد أن منظومة القيم المحركة للأفراد (اللائحة التنفيذية للسلوك الفردي في أي مجتمع) لا تلتزم بما تفرضه شريعة المجتمع.

وفي مجتمعنا الإسلامي غالباً ما تكون سلطة المجتمع أقوى من سلطة الدين في فرض محددات السلوك. لتأخذ مثلاً جريمة كالزنا وضع لها الإسلام قواعد واضحة

أهمها المساواة التامة بين الرجل والمرأة في التحريم والعقوبة، ولكن المجتمعات في العالم الإسلامي لا تلتزم بهذا الهدي النبوي الرباني، وإنما تمارس تمييزاً كبيراً في معاقبة الجنسين عند ارتكاب الجريمة نفسها.

السؤال المهم إذا اتفقنا على صعوبة الاستمرار في العمل في التمثيل القسري بشكل يومي: كيف يستطيع من يرغب في ترك هذه الوظيفة (الأشغال الشاقة المؤبدة) المرهقة أن يقنع المخرج بقبول استقالته؟ أو ربما السؤال بشكل أعمق: هل من الممكن إغلاق هذا المسرح الكبير؟

دعونا نحاول أن نجيب عن السؤال الثاني أولاً، ونقول: إنه لا يوجد مجتمع إنساني دون محددات للسلوك تدفعها منظومة من القيم والموروثات، ولكن المجتمعات تختلف بشكل كبير حول طبيعة هذه المحددات ودرجة العقوبة المفروضة على المتجاوزين.

مشكلة مجتمعنا العربي (المحافظ خصوصاً) هي في المساحة الضيقة التي تفسحها هذه المحددات للمناورة في السلوك وقسوة العقاب عند التجاوز، ولا بد من الإقرار بوجود إيجابيات لبعض هذه المحددات، ولكن المتابع لمسيرة هذه المحددات خلال الثلاثين سنة الماضية يلاحظ أن جوانبها الإيجابية في ضعف مستمر، وجوانبها السلبية في نمو مطرد.

تأمل مجموعة من المدعوين في مناسبة ما، وحاول أن تتذكر كيف كانت الحال قبل ثلاثين سنة، فستجد أن المحددات الإيجابية في هبوط والسلبية في صعود.

هل هددت الوفرة المفاجئة منظومة القيم في مجتمع اعتاد على القلة في كل شيء قروناً طويلة؟

الغبية

ر

الغيبة

من يتدبر منظومة التجريم والعقوبة في الإسلام يجد تناسباً واضحاً بين أثر الجريمة والعقوبة المترتبة عليها، فمثلاً الزنا جريمة تعريفها الفسيولوجي واحد، لكن أثرها يختلف وبشكل كبير إذا ما وقعت من شاب غير متزوج أو شابة غير متزوجة مقارنة بآثارها إن وقعت من متزوج أو متزوجة، وتزداد آثارها إن وقعت مع زوجة جار أو من رجل كهل (أشيمط) أصبح قدوة للناس، وقلت عنده الدوافع، وقد رتب الشرع وعيداً وعقوبة مختلفة لكل نوع، والسرقه كذلك إن وقعت في غير محرز تختلف عن الحرز، وتختلف عن السطو أو قطع الطريق.

أتذكر هذا دائماً عندما أسمع الوعيد الوارد في حق من يغتاب الناس. ما الأثر الذي تسببه الغيبة، حتى يستحق مرتكبها هذا الوعيد، وحتى يرد نص قرآني قاطع فيها «ولا يغتاب بعضكم بعضاً أيح أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» تشبيه رهيب لممارسة الغيبة.

وعرف الرسول الكريم ﷺ الغيبة ببساطة: «ذكرك أخاك بما يكره».

فما الأثر الذي يتركه تفككه مجموعة من الناس بأحدهم، وهو غائب لا يعلم؟ دعونا نتذكر ناموساً كونياً أصبح في حكم المسلمات، وهو أن الإنجازات الكبرى تحتاج إلى مغامرات وإلى جسارة على الأخطار، وتقبل نسبة عالية من الفشل. تكاد ثقافة المغامرة وقبول الأخطار العالية تفسر جزءاً كبيراً من تفوق الأمة الأمريكية وسيادتها على العالم في القرن العشرين.

إن انتشار الغيبة وعلم كل فرد بالمجتمع أن الألسن ستلوّكه إذا ما فشل أو أخفق في مشروع أو عمل سترفع تكلفة المغامرة، وتجعل الفرد يحجم عن الأخطار ويربي أبناءه على سلوك دروب السلامة، ومن ثم تشيع ثقافة الخنوع، وثقافة الانشغال بالآخر، والصدود عن الذات وقبول الواقع وإيثار السلامة، وتنتشر في مجتمعاتنا منظومة من الأمثال التي تجسد هذا السلوك: «من خاف سلم» «باب يجيك منه الريح سده واستريح»، «احفظ للناس، ولا تصلح لهم» وهكذا.

يقول المحفز الأسترالي الشهير بول حنا: «إن الهوة الكبيرة لا يمكن تجاوزها في قفزتين» فالمغامرة وتقبل نسب عالية من الأخطار أمر ضروري لأي مشروع كبير على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي. فإن كانت تكلفة الفشل عالية فقد تسبب ثقافة المجتمع التي ترفع تكلفة الفشل عزوف أفرادها عن المغامرات، وتحمل الأخطار، ومن ثم الإحجام وخسارة المجتمع من ثمرات الخطوات الجريئة والقفزات الواسعة. إذاً الغيبة عائق تنموي خطير، حيث يؤدي شيوعها إلى رفع تكلفة الإخفاق وعزوف أفراد المجتمع عن أي مبادرة تحتمل الفشل.

المرأة

٣

المرأة

عند تدبر السياسات الخارجية للدول الكبرى الممثلة للحضارة الغربية في عصرنا نجد اهتماماً كبيراً مبطناً ومعلنأ بموضوع تحرير المرأة، وأحياناً يسمونه تمكين المرأة وحقوقها السياسية ومساواتها بالرجال.

قرأت كثيراً، وسألت كثيراً من المفكرين، ولم أجد جواباً شافياً للسؤال الآتي:
ما سر اهتمام الغرب بالمرأة؟

نحن نعلم أن الغرب منذ حركة الإصلاح الديني البروتستانتي وانتصار الرأسمالية وسيادتها يسير وفق فلسفة نفعية، وتسير سياساته الخارجية المصلحة دون أن ننكر وجود نفس أيديولوجي أحياناً، ولكن تأثيره قليل.

حتى تلك الدراسات الاستشرافية الكلاسيكية الرصينة والأكاديمية الحديثة التي كنا نعتقد أنها أقرب ما تكون للحياد العلمي، ظهرت بحوث تشير إلى أنها ما هي إلا توطئة للهيمنة والسيطرة واستغلال الآخر وإيجاد بيئة معرفية تساعد على ذلك (انظر مثلاً إلى دراسة إدوارد سعيد عن الاستشراق).

ما الذي إذا يدفع الغرب إلى كل هذا الاهتمام بالمرأة في المجتمعات الأخرى؟ لكي لا تنتهم بالقفز للتنتائج سنقول: إن ظواهر هذا الاهتمام واضحة في الخطاب السياسي الغربي وفي الإصدارات الفكرية، بل في المؤتمرات والندوات المدعومة التي من أهمها مؤتمر القاهرة للتنمية والسكان الذي عقد عام ١٩٩٤م.

بل وصل الأمر إلى جهود مشبوهة لسفارات الولايات المتحدة وقنصلياتها في الدول الإسلامية، بعضها نشر بوصفه فضائح في الصحف.

كثير من طلبة العلم والدعاة يقدمون لنا جواباً جاهزاً يستند إلى نظرية المؤامرة، ويستشهدون بالآية الكريمة: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أو الآية الكريمة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

مما يثير الدهشة ما ذكره الزوجان «ألان»، و«باربرا بيس» في كتابهما الشهير: «لماذا لا يستطيع الرجال أن ينصتوا، ولا تستطيع النساء قراءة الخرائط» وهو كتاب بيع منه عشرة ملايين نسخة، يوضح الفوارق الأساسية بين الرجال والنساء، فقد ذكرا باستغراب كبير الحساسية المفرطة التي يتعامل بها المجتمع الغربي اليوم مع هذا الموضوع، الكل لا يريد أن يضبط متلبساً بالقول: إن الرجال والنساء مختلفون، فالذي يبدو أن هناك عقوبة اجتماعية وسياسية كبيرة (وإن لم تكن قانونية) على من يدعي ذلك. يزعم المؤلفان أن كثيراً من المعلومات التي حصلوا عليها جاءت من تصريحات غير مسجلة، وطلب المصrchون بها عدم ذكر أسمائهم، وبعضها جرى بحثه في غرف مظلمة، خلف أبواب مغلقة، كما ذكرا ذلك حرفياً في مقدمة الكتاب.

سيظل سؤالاً مشروعاً ومفتوحاً عن الأسباب الحقيقية وراء إصرار العالم الغربي اليوم على أن الرجال والنساء متساوون، وفي ترويج القوى الغربية لهذه الثقافة وابتزاز دول العالم الضعيفة ومكافأتهما على أدائها في هذا الجانب.

كتاب الزوجين بيس خلاصة عظيمة لجهود سنوات من البحث والتحري والتقصي قطعاً من أجله ٤٠٠,٠٠٠ كلم وقابلاً كثيراً من خبراء العالم، وقدماً عروضاً ومحاضرات في معظم دول العالم (من ضمنها المملكة العربية السعودية).

وقد انتهى إلى أن العلم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجال والنساء مختلفون تماماً، فليس الذكر كالأنثى على الإطلاق.

وقبلها الدكتور «جون جري» قد وصل إلى النتيجة نفسها وعبر عنها بعنوان رائع: (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة).

كما لو أن الرجال قد قدموا من كوكب المريخ والنساء من كوكب الزهرة، وقد استخدم هذا العنوان لكتاب أصدره باع منه ملايين النسخ.

وقد أفاض الكتابان في الفروق الجوهرية فسيولوجيًا وبيولوجيًا وسيكولوجيًا بين الرجال والنساء، بحيث تجعل كلاً منهما يفكر بطريقة مختلفة تماماً، ويفسر الرسائل بطرق مختلفة، ويملك مواهب مختلفة، ويصلح لأعمال مختلفة، تتكامل فيما بينهما لمصلحة المجتمع، أفراداً ومؤسسات.

يشار اليوم كثير من القضايا عن شهادة المرأة أو التعدد أو الحجاب... إلخ من الأمور التي تخص المرأة، وتقدم لنا الحضارة ذاتها التي آدنتنا بهذه الأسئلة، دلائل مذهلة على المصدر الإلهي للتشريع الإسلامي، فقدرات المرأة تختلف عن قدرات الرجل بشكل جوهري يجعلها تصلح لأداء مهام معينة، وتقل كفاءتها في مهام أخرى، وإن قدرات الرجل تؤهله لأداء مهام معينة وتقعده عن أداء مهام أخرى. وتوصل الزوجان بيس إلى أن الرجل (ذكر الجنس البشري) ينتمي إلى المجموعة المعددة من النوع الحيواني، فكل خواصه الجسدية، تدعم هذا التوجه، وقد عبر في النهاية عن ذلك بقولها:

«إن هذا هو السبب الذي يجعل الرجال الآن

يكافحون لكي يبقوا غير معددين».

وكما يعلم كثير من القراء أن الزواج الإسلامي كان عرضة لكثير من النقد على أساس أنه صفقة تؤدي إلى تشييء المرأة، كما يزعمون. وقد انتهى الزوجان بيس إلى أن الزواج صفقة تقدم المرأة من خلالها الجنس؛ لتحصل على الزواج (بمعنى

الرعاية) وهي البنود الأصلية ذاتها في الزواج الإسلامي تمكين من المرأة مقابل نفقة من الرجل، ثم تأتي المودة والرحمة والرعاية بوصفها نتائج للمشاركة في الحياة. وكما بدأنا في مقدمة هذا الموضوع عن سبب أو سر اهتمام الغرب بالمرأة لا بد أن نسأل عن سر اهتمام مجتمعاتنا المحلي بالمرأة، هذا الاهتمام الذي جعلها مصدر كل الشرف ومرجعه ومحور الأخلاق.

إن من المثير للتأمل أن تتركز قضايا الشرف في المجتمعات الصحراوية على المرأة، وتستأثر المرأة في هذه المجتمعات (لا فرق بين أن تكون من قبائل الباكستان أو في قلب الجزيرة العربية أو في صحراء الأردن) بمجمل قيم الشرف، فانحسرت قيم أخرى، مثل شرف المهنة وشرف الكلمة.

هل نستطيع القول: إن المرأة هي الجمال الوحيد في الصحراء، وإن إنسان الصحراء عندما يضجر لا يجد أمامه سوى المرأة بوصفها مرسى للحب والحنان والدفء والعطاء، فلا أنهار ولا أشجار ولا ثمار، ومن ثم نشأ ينظر إلى المرأة بعين قلق، وأنزل بها كل ما عنده من قيم، قد يزيد هذا التحليل تشابه المجتمعات الصحراوية إلى حد كبير في هذه النظرة، حتى مع اختلاف أعراقهم وأديانهم، وفي المقابل نجد أن المجتمعات الاستوائية الرغيدة أقل المجتمعات تحمساً في جانب المرأة، فسواء في الفلبين أو إندونيسيا أو تايلند أو البرازيل، ليست المرأة هاجساً على الإطلاق، ولا يقوم الدين هنا بدور كبير، فالفرق محدود بين الإندونيسي المسلم وغير المسلم.

إحدى أكبر مشكلاتنا مع المرأة في مجتمعاتنا المعاصرة تتمثل في التشابك الذي يبدو أنه غير قابل للفك بين النصوص الشرعية حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وما زودتنا به حياتنا الصحراوية والقبلية، إن أي متأمل لإدارة العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمعاتنا، وأي مطلع على طبيعة هذه العلاقة في المجتمع المرجعي النبوي والراشدي، يدرك أن هناك فارقاً كبيراً بينهما.

إن من المناسب أن نراجع دائماً مجموعة النصوص التي وصلتنا عن المرأة في المجتمع المثال (النبي / الراشدي)، ومثال على هذه النصوص، تذكرو قول الحق تبارك وتعالى في قضية شهادة الرجل والمرأة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ دائماً ما يستشهد بهذه الآية على اتهام المسلمين لعقل المرأة، ولكنهم ينسون الوجه الآخر من أوجه متعددة تحملها هذه الآية الكريمة، وهو حضور المرأة مجالس الصفقات وشهاداتها عليها، ومعلوم أن الشهادة تتطلب حضوراً جسدياً وذهنياً، فليس لغائب شهادة.

هناك نصوص متضافرة ومتوافرة تصف وضعية للمرأة في مجتمع النبوة وما بعده، غير تلك التي نحن عليها الآن، ما يعطينا دلالة واضحة على مدى الخلط بين الديني والعرف الاجتماعي في زماننا المعاصر:

- روى مسلم عن أم عطية رضي الله عنها قالت: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى.

• سؤال: لو أن بلداً إسلامياً قد وضع نظام تجنيد للمرأة، كيف ستكون ردود أفعالنا؟

- روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كن نساء من المؤمنات يشهدن مع رسول الله الفجر متلفعات بمروطهن، ثم ينقلبن إلى بيوتهن، حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس.

- روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان مقبلين، من عرس، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مُمْتَلِئاً، فقال: (اللهم، أنتم من أحب الناس إلي) قالها ثلاث مرات.

- روى مسلم عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي (منادي رسول الله ﷺ) ينادي: الصلاة جامعة... وفي رواية: فنودي في الناس أن الصلاة جامعة، فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكننت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال.

في مجتمعنا الآن تياران يتحالفان دون وعيهاما لإلحاق أكبر أذى ممكن بالمرأة، مع ظاهر العداوة الشديدة بينهما: تيار يطلق عليه أحياناً ليبرالي أو تغريبي، سمّه ما شئت له رؤية تتمثل في أن تلحق المرأة في بلادنا بالمرأة الغربية؛ لتتحقق لها المساهمة في بناء المجتمع، وتستمتع بثمرات حقوقها.

التيار الثاني استشكلت لديه خلفياته المستمدة من النص الديني والإرث الاجتماعي، فألبس عادات المجتمع وتقاليد لبوس القداسة الدينية والزامياتها، فأوجد رؤية لا تخرج فيها المرأة من البيت إلا للضرورة.

الغريب في الأمر أن كل موقف من أي من هذين النقيضين يدعم بشكل قوي موقف الطرف الآخر.

إننا في أمس الحاجة اليوم إلى حوار صادق مرجعيته نصوصنا الدينية والمجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، لإدارة العلاقة الثنائية التفاعلية بين المرأة والرجل بشكل يكفل سلامة الأمة وصيانة مستقبلها.

الشيء الذي لا بد أن يدركه بعض إخواننا من حسني النية أن أي تضيق على حركة المرأة لا يستند إلى أصل ديني قطعي الثبوت والدلالة سيهزم، وسيؤدي إلى مضرة أكبر، إنه أشبه بساتر رملي لوادٍ جارف كل ما يؤديه هو تجميع الماء مدة محدودة، ثم ينهار الساتر مدمراً ما خلفه.

وأخيراً تزخر - بفضل الله - مجتمعاتنا اليوم بأفذاذ من النساء والرجال استطاعوا، تخليص أنفسهم من إرث العادة والرجوع إلى منبع الخير وأصل كل هداية:

كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتطبيقهما الحي بالمجتمع المرجعي، يكافح هؤلاء الأفاذا أكثرية تتمتع بالقوة المادية والمؤثرات الإعلامية والطغيان السياسي.

تحارب الأكثرية اليوم في العالم من أجل عالم يكون فيه الرجل والمرأة متساويين^(١) تماماً، بحيث تذوب الفروق «الجنديرية»^(٢) «في الفروق البيولوجية والفسولوجية، وتكافح الأقلية من أجل الدفاع عن شرع يؤكد كرامتها واختلافها في المسؤوليات والواجبات، ليس ذلك فحسب، بل يرسم مشهداً بديعاً للتكامل في الأبعاد النفسية والاجتماعية والوظيفية والإنتاجية، ويعترف بإيجابيات كل طرف، ويثمرها بشكل ذكي.

تذكروا سؤالنا المفتوح عن سراهتمام الحضارة الغربية اليوم بالمرأة الذي لا نستطيع أن نجزم بوجود إجابة مقنعة له؟

لدي يقين بأن العالم يوماً ما سيتذكر باعتزاز أولئك الأفاذا الذين ظلوا يكافحون من أجل تمايز الرجال عن النساء؛ لحفظ توازن الكون وضمان ديمومة العلاقة واستمرار حياة البشر السوية.

(١) على الرغم من جهل كثير من المشاركين بالأهداف الحقيقية لهذه الحرب.

(٢) في اللغة الإنجليزية يستعملون كلمة (gender) جندير للدلالة على التمايز الاجتماعي والثقافي بين الذكر والأنثى، وكلمة جنس (sex) للدلالة على التمايز البيولوجي والفسولوجي، ويترتب على مفهوم الجندير إشكاليات عدة، ولاقي معارضة في ثقافات كثيرة ومنها الثقافة الإسلامية، وذلك أنه يركز على المقوم الثقافي الاجتماعي في التمييز بين الذكر والأنثى، فالمجتمع هو الذي يجعل من الأنثى «أنثى» ومن الذكر «ذكر»، وفي ذلك تطرف جلي للتقليل من العوامل الفسولوجية.

علاقات
المساهمة والمشاعة

٤

علاقات المسامحة والمشاحة

تقوم بعض التعاملات على «المسامحة» وتقوم أخرى على «المشاحة»، فالهبات مثلاً أساسها التسامح، والديون أساسها المشاحة.

كثير من مشكلاتنا مصدرها الخلط بين هذين المفهومين.

نطبق قوانين المسامحة على تعاملات المشاحة، وقوانين المشاحة على تعاملات المسامحة.

عندما تنشأ التجارة العائلية تستمر قوانين المسامحة (المطبقة على علاقات العائلة الاجتماعية) بإدارة التعاملات التجارية، وتنمو التجارة، ويغيب المؤسس، ثم يفتن الجميع إلى أن التعامل التجاري أساسه قائم على المشاحة، والنهاية هي أقصى درجات المشاحة، وهو التقاضي مع ما يتبعه من تشهير وإساءة فهم.

العلاقة الزوجية تقوم على المسامحة، فإن بدأ الزوجان بتطبيق قوانين المشاحة أفسدا العلاقة، فعلت لك كذا، وفعلت أنت كذا، وتبدأ الحسابات، ولا يؤدي ذلك إلا إلى الشحناء، وقد تنتهي بأقصى درجات المشاحة، وهو الطلاق.

لا بد أن نميز في علاقاتنا بين ما يقوم على المشاحة، وما يقوم على المسامحة، فعلى سبيل المثال العلاقة مع الأخ تقوم على المسامحة، والعلاقة مع الشريك تقوم على المشاحة، إن تطبيق القانون المناسب في كل حالة يضمن صحة العلاقة واستمرارها، بل نموها.

وتصبح العملية أصعب عندما تدخل مع صديق في مشاركة تجارية، عندها لا بد أن تحذر من الخلط؛ حتى لا تفقد الصديق، وتفقد التجارة.

إن الفصل التام بين التعاملات القائمة على المسامحة، والتعاملات القائمة على المشاحة أمر في غاية الأهمية؛ لضمان جودة الحياة ونمو العلاقات.

يصدّم بعض الناس، عندما يفاجئهم صديق حميم بحسابات دقيقة في تعامل تجاري، فقد أشكل عليهم أنهم يتعاملون مع شخص مختلف، ففلان الصديق غير فلان التاجر.

تأمل:

في علاقات المشاحة التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾.

وفي علاقات التسامح: ﴿وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾.

وفي رأيي أنه من المفيد تنفيذ أعمال بحثية وفكرية للاستثمار في مفهومي المسامحة والمشاحة تستهدف التنقيب المعمق في البنية الفلسفية والنفسية والاجتماعية، ونجهد لأن نضع حدوداً بين تضاريس كل مفهوم وتطبيقاته في السياقات المختلفة.

حكومة الأخلاق

٥

حكومة الأطلاق

قد تكون الحكومة بمفهومها السياسي أحد أكثر الأشياء أهمية في حياة البشر، والسبب بسيط، حيث إن هناك كثيراً من الوظائف الأساسية في حياة الإنسان لا يستطيع القيام بها بمفرده، وإنما يحتاج إلى الحكومة للقيام بها.

تصور أي مجتمع من الناس دون حكومة تفرض الأمن والنظام، وترعى الحقوق والمصالح، شاهدنا جميعاً في العقدين الماضيين انهيار الحكومة في بعض الدول، وكيف أصبحت حال الناس عندها.

هناك حكومة أخرى ليس لها كيان مؤسسي، ولا أجهزة ولا موظفون ولا تفرض عقوبات ولا تدفع رواتب، لكنها في غاية الأهمية في حياة الناس، دعونا نطلق عليها الحكومة الأخلاقية.

عندما نتعامل مع أحد الناس نفترض أنه: يصدق في الوعد، يحفظ الأمانة، يحافظ على السر، يتحاشى أن يقول ما ليس فيك... إلخ.

عندما تنهار الحكومة الأخلاقية (أو منظومة القيم) تصبح حياة الناس شقاءً وعذاباً.

في كل حالة تعامل تبذل جهداً مضاعفاً مثلاً للتأكد من أن فلاناً من الناس سيحضر في الموعد المحدد، تواصل الاتصال، وتعيد التذكير، وتقلق حتى حضوره.

وعندما يشتكي إليك عميل في مكتب تنفق جهداً هائلاً لمراجعة إفادته، وعندما تتحقق منها تجدها بعيدة كل البعد عن الواقع؛ لأن النسبة العظمى من هذه الشكاوى يتضح في نهاية الأمر أنها كيدية، أو تعطي نصف الحقيقة.

في المجتمعات التي لديها «حوكمة أخلاقية» قوية يعيش الناس بأقل قدر من الإنفاق على مثل هذه التعاملات.

تقف أمام أحد الكاونترات لطلب خدمة، مثل استئجار سيارة، فيدون الموظف أجوبتك دون حاجة للوثائق والتأكد.

يحدد لك صديق موعداً، فيحضر في الوقت المحدد والمكان المحدد.

يخبرك مأمور استعلامات عن شيء ما، فلا تحتاج إلى أن تسأل غيره للاطمئنان.

وعلى النقيض تعيش المجتمعات التي انهارت حكوماتها الأخلاقية (أو فسدت) في جحيم السؤال المستمر والتوثيق المضني وحرق الأعصاب في الانتظار.

كيف نبني الحوكمة الأخلاقية؟ موضوع فلسفي عميق تتشابك فيه السياسة مع الدين مع الأنثروبولوجيا، ولكن ضعف الحكومة الأخلاقية أو انهيارها على مستوى التعامل يشبه مأساة ضعف الحكومة السياسية، أو غيابها في مسألة الأمن والنظام.

العدالة والحرية

يكاد المفكرون يتفقون على أن العدالة هي القيمة الأعلى في منظومة القيم في الحضارة الإسلامية، وفي ثقافة المجتمع المسلم، فعلى العدل كما نقول قامت السماوات والأرض، وفي نص القرآن: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، يقابلها في الحضارة الغربية قيمة الحرية بوصفها أعلى قيمة في هرم القيم الغربي، بل إن الساسة الغربيين إذا أرادوا أن يحشدوا، أو أن يجيشوا شعوبهم على عدو خارجي اتهموه بأنه يهدد حريتهم، ويجادل بعض المفكرين بأن الحرية إذا طبقت بشكلها الصحيح فهي تجلب معها العدالة، ومن ثم تتحقق هاتان الفضيلتان.

ويحيل الغربيون أصل قيمة الحرية إلى إرثهم اليوناني في أثينا القديمة، فيرجعون هذه الفضيلة العظمى عندهم إلى الحضارة الهيلينية.

يعتقد كثير من أبناء المجتمع العربي المسلم، أن الحرية التي يقدمها الغربيون هي تلك التي تُعنى بالجوانب الشخصية كحرية اللباس والعلاقات، غير أن الحقيقة أن هذا الجزء ليس هو الأكثر أهمية، بل إن المجتمعات الغربية تعلي من قيمة الحرية السياسية، وهي الضاربة في أعماق العقلية الغربية، ودفعت تلك المجتمعات أثماناً باهظة من أرواح أبنائها لتحقيق هذه الفضيلة وحمايتها.

من هذه القيم العليا تنحدر كثير من القيم الفرعية والسلوكيات الاجتماعية، بل الأنظمة والقوانين، وقد سألت أحد أساتذة القانون في جامعة هارفرد في أثناء محاضرة عن: «خيار الرجوع عن الصفقات في حال ما إذا ثبت وجود غبن كبير فيها؟»، فأجابني بطريقة حاسمة بأنه لا مجال مطلقاً لمثل هذا الأمر مهما كان مقدار الغبن،

فأخبرته عن وجود تشريع «خيار الغبن» في شريعتنا الإسلامية الذي يكفل للطرف المغبون وفق ضوابط وشروط الحصول على سعر عادل لبضاعته أو استردادها، وقد ارتبط في ذهني هذا الأمر مع منظومة القيم، فإن كانت الحرية هي القيمة الأعلى، فلن يكون هناك مجال لخيار الغبن، وفي الثقافة التي تضع العدل في المرتبة الأعلى لن تقر حصول ظلم واضح في أي صفقة ما، بحجة تحقيق الحرية لطرف ما مع ما يسبب ذلك من الظلم لطرف آخر، وفي هذا تجسيد لرؤية الروح الإسلامية في التعاطي مع ملفي العدالة والحرية في إطار إنساني.

قليل من السياسة

v

قليل من السياسة

من أكثر ما يتعرض للنقد في تاريخنا الإسلامي مفهوم «دار الإسلام» و«دار الحرب» والجهاد بشكل عام، والمفهومان غير متفق عليهما في الفقه الإسلامي، ولا في التطبيق العملي في الدول الإسلامية، ما يتعرض للنقد والاستغراب في موضوع الجهاد هو تلك الحرب التي تنشأ من أجل تغيير دين لمجتمع ما على الرغم من أن كثيراً من المسلمين يرى أن مثل هذه الحرب تنشأ من أجل حماية حرية الاختيار، بمعنى أنها موجهة للنظام السياسي الذي يمنع وصول الدعوة الإسلامية إلى تجمع إنساني، وأما تصنيف دار الحرب ودار الإسلام في مفهومه البسيط فهو أن هناك قوانين وأنظمة تطبق على من يسكن في دار الإسلام وقوانين أخرى تطبق على من يسكن في دار الحرب.

الغريب في الأمر أن من يقرأ المشروع الأمريكي في العراق سيصيبه الدهول من أن التبرير الذي استمدت منه هذه الحرب مشروعيتها في النهاية هو تحرير العراق وتحويله إلى بلد ديمقراطي.

باختصار، هي حرب إيديولوجية لتحويل مجتمع يعيش بطريقة ما إلى مجتمع يعيش وفق رؤية من شن الحرب! ما الفرق بين مثل هذه الحرب، وما يزعمون أنه «جهاد ظالم»؟

الأمر الآخر أن الولايات المتحدة الآن تطبق قوانين مختلفة تماماً خارج الولايات المتحدة؛ لانتهاك حقوق الناس، ومعلوم أن سبب إيجاد معسكر (جوانتانامو) وكونه خارجاً عن أراضي الولايات المتحدة؛ حتى تستطيع المؤسسة السياسية والعسكرية الأمريكية التصرف دون قيود أو وفق أنظمة أخرى، ألا يعني ذلك وجود «دار أمريكا» و«دار حرب»؟

الزمن

٨

الزمن

ناموس عظيم وعجيب يبدو أن سره لم يأذن الله له بالظهور بعد.

ما طبيعة الزمن؟

سؤال قد يبدو سخيفاً لكثير من الناس، فقد لا يرى السواد الأعظم من الناس في هذا الأمر ما يدعو إلى التساؤل، غير أن المتتبع لتاريخ العلوم والحضارات سيمر دون شك على الحيرة الكبرى التي واجهت المتأملين في هذا الناموس العظيم من فلاسفة ومفكرين. تعرض الفلاسفة الطبيعيون لهذا الموضوع، وربطوا ماهية الزمن بالحركة وبشكل أدق بعدد الحركة وأنه يقاس بالحركة العامة للكون، ثم جاء أرسطو، فتحدث بشيء من التفصيل في كتاب الطبيعة عن إشكالية الزمان، غير أنه ارتكز في حديثه على ارتباط الزمان بالحركة، وينقل الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية عن القديس أوجستين أنه كرس لمشكلة الزمان صفحات جميلة في كتابه (الاعترافات) وينقل لنا هذا النص:

«يبدو لي أن الزمان امتداد، ولكن امتداد ماذا؟ لا أدري! أألروح... ماذا أقيس حقاً؟ يا إلهي، حينما أقول مثلاً: هذا الزمان أطول من الآخر بوجه عام أو بوجه خاص، إن هذا الزمان ضعف الآخر، إنني أقيس الزمان أعرف ذلك، ولكن لا أقيس المستقبل؛ لأنه لم يأت بعد، ولا الحاضر؛ لأنه آن، ولا الماضي؛ لأنه ليس حاضراً بعد، فماذا أقيس إذًا؟.. إلخ».

دليل واضح على الحيرة.

ومع نيوتن أشهر علماء الطبيعة في التاريخ البشري، الزمان مطلق، وهو الزمان الحقيقي الرياضي، وهو قائم بذاته، مستقل بطبيعته غير منسوب إلى شيء آخر، يسير باطراد، وقد وضع برجسون الذي كرس لمشكلة الزمان بحوثاً كبيرة تميزاً جميلاً وحاداً في الوقت نفسه، بين الزمان والمكان، ترجمه عبدالرحمن بدوي على النحو الآتي:

المكان يعني	الزمان يعني
الامتداد	المدة الحقيقية
العدد	الكثرة الكيفية
التجانس	اللاتجانس
المعية، التتالي	التوالي
الكم	الكيف
الثبات	التغير
الخروج	البطون
الانفصال	الاتصال النفسي
الممتد	اللامتد
عدم قابلية النفوذ	النفوذ المتبادل
الضرورة	التلقائية، الحرية، التطور الخالق
الآلية	الشعور
المادة	الروح

وفي اعتقادي أن إحدى أبرز المحطات في تصور مفهوم الزمان هي تلك النظرية التي تعرف بالنسبية في فيزياء آينشتاين، ومن تتبع الإرهاصات الكبرى التي سبقت ظهور هذه النظرية، وخصوصاً في القرن التاسع عشر الميلادي يجد أن الزمان كان حاضراً، وهو المشكلة والحل في الوقت نفسه، وعندما استقر في ذهن آينشتاين (كما أثبتتها تجارب عدّة) أن سرعة الضوء ثابتة، ولا تعتمد على حركة الراصد كان لا بد من التوجه للزمان؛ للخروج بحل مقبول، وبعد معاناة رهيبية خرج آينشتاين على

العالم بمفهوم النسبية، وأصبح الزمان على ضوء هذه النظرية نسبياً وبشكل أدق لم يعد مستقلاً بذاته، وإنما له ارتباط بالمكان، حتى إن بعضهم عدّه بعداً رابعاً في الكون مع الأبعاد الثلاثة للمكان. وقدّم لنا آينشتاين نظيراً جديداً يقول: (إن الزمن يتباطأ مع السرعة، وتخيل نفسه راكباً على رأس شعاع ضوئي، وافترض أن الزمن يتوقف تماماً، عندما يسير أي كائن في الكون بسرعة الضوء) ويتباطأ الزمن على هيئة معادلة رياضية مع السرعة، وقد أجريت تجارب ساعات ذرية بالغة الدقة حملت في طائرات تدور حول الأرض، وأثبتت النتائج صدق فرضية آينشتاين، ومن هذا المنطلق جاءت معضلة التوأمين اللذين مكث أحدهما على الأرض، وسافر الآخر بسرعة قريبة من سرعة الضوء إلى أحد الأجرام السماوية البعيدة جداً، وعندما عاد بعد خمسين سنة وجد أخاه التوأم قد كبر، وشاب في حين هو لا يزال في طفولته المبكرة. المهم في الأمر أن علماء الطبيعة الآن يتصورون الزمان بشكل نسبي، له ارتباط بالمكان، بمعنى أنه لا يوجد شيء اسمه (الآن) لشيئين منفصلين مكانيًا، لا شك في أن مثل هذا التصور عسير على الفهم.

غير أنه حتى الآن، فقد استطاعت النظرية النسبية أن تصمد أمام كثير من الظواهر الكونية، واستطاعت تفسيرها بنجاح.

ينقسم الناس في إدراك أثر الزمن على تصوراتهم للأشياء وحكمهم عليها إلى ثلاثة أضرب:

الأول: لا يحسبون للزمن حساباً، ويجزم أن حكمه على شيء ما لن يتغير مع مرور الزمن، فيتعرض لقرار أو تصرف قديم بالنقد والتقويم دون أي حساب أو إدراك لأثر الزمن، ولا يتوقعون أن يحدث تغير كبير في حكمهم على الأشياء مع مرور الوقت، وهؤلاء هم أعجل الناس في إصدار الأحكام وانتقاد الآخرين. (هذا القسم يتأثرون كثيراً بـ «المنطق القديم» الذي سبق الإشارة إليه).

الثاني: وهؤلاء يدركون أن للزمن أثراً قوياً على تصور الأشياء، ومن ثم الحكم عليها، فيؤثرون تعليق أحكامهم على الأحداث السابقة، ويبدون في غاية الحذر عند سؤالهم عن رأيهم أو حكمهم في أشياء مستقبلية.

الثالث: وهؤلاء أعطاهم الله القدرة على إدراك أثر الزمن والخروج برؤية صائبة عن مدى هذا الأثر، ومن ثم يحققون السبق، سواء في مشروعات تجارية أو قرارات إدارية، وفي الغالب ينتمي الساسة والحكماء وكبار رجال الأعمال إلى هذا القسم.

كنت مع زميل في مؤتمر منظمة العواصم الإسلامية بطهران عام ١٤١٨ هـ وتمت استضافتنا في أحسن فنادق طهران، وخلال تجاذب أطراف الحديث في قاعة الفندق أخبرني هذا الزميل بأنه جاء إلى الفندق نفسه قبل عشرين سنة؛ ليشارك مع لجنة سعودية لشراء مبنى للسفارة السعودية في ذلك الوقت، وعندها سألته: كيف يقارن بين الحال آنذاك والحال الآن؟، حيث كانت زيارته قبل الثورة، ونحن نجتمع الآن بعد مرور وقت على قيام النظام الجديد في إيران، فأطربتني إجابته المليئة بالحكمة، حيث قال:

كنت أنا في ذلك الوقت شخصاً مختلفاً، ويصعب
علي الآن أن أصدر حكماً.

ومقولة صاحبي تذكرني بالمقولة الساخرة لـ «جورج بارنارد شو» حين قال: الشخص الوحيد الذي أعرف أنه يتصرف بعقل هو الخياط، فهو يأخذ مقاساتي من جديد في كل مرة يراني! أما الباقيون فهم يستخدمون مقاييسهم، ويتوقعون مني أن أناسبها.

إحدى أهم دلالات النضج البشري تأجيل اللذة، فالمعروف عن عطاء البشر قدرتهم العجيبة على تأجيل اللذة في مقابل التفكير الطفولي الذي غالباً ما يوصف بأنه (هنا والآن).

ما الذي نستطيع أن نفهمه من هذا؟ هل نستطيع أن نقول: إن العطاء يحترم

الزمن، ويعطونه فرصة للعبور والمروء، حتى تتحقق مطلوباتهم؟

تأمل الصبر، ما معنى الصبر؟ نحن نعلم أنه واحد من أعظم الصفات

الحميدة التي يتحلى بها البشر، وتقرأ في القرآن الكريم أن الله عز وجل: ﴿يُحِبُّ

الصَّابِرِينَ﴾ بل هناك من يرى أنه قد كسر الإعراب في آية البقرة من أجل الصابرين

في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ

وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ

الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

التعريف النمطي أو الكلاسيكي للصبر في موروثنا الإسلامي هو أنه نقيض الجزع،

ويستشهد أنصار هذا التعريف بأسلوب المقابلة، كما في الآية الكريمة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾، فهو إذاً حالة نفسية للإنسان يواجه بها الأحداث.

في اعتقادي أن الصبر أساساً مرتبط بالزمن، فكأن الإنسان عندما يصبر يحترم

ناموس الزمن الذي لا بد أن يمر دون إزعاج، وهذا الناموس الذي هو الزمن لن

يستأذن أحداً في المرور، وإنما الصابرون يتحملون مروء برضا واحتساب، في حين يكثُر

الجزعون من التسخط والاستدراك.

لاحظ أن تعريفنا للصبر، وهو السماح للزمن بالمرور دون ضجر يساعده على

تفسير تفاوت بني البشر في حظهم من هذه الجبلية العظيمة، فأهل الصحاري أقل صبراً

وأكثر انفعالاً من أهل الأنهار والبحار، أما قاطنو الجيوب الاستوائية فتكاد تجزم أنهم لا

يعرفون الانفعال مطلقاً ولديهم صبر غير محدود^(١)، هل يمكن أن نقول: إن مرور الزمن

(١) يظل السائق الإندونيسي ينتظر أسرة في قصر أفراح خمس ساعات دون ملل.

في المجتمعات الرغيدة يثمر نفعاً، أما في إنسان الصحراء فلا جديد، ما جعل إنسان الصحراء يتخذ موقفاً سلبياً من مرور الوقت، هذا التحليل يستند إلى شخصنة الزمن وعده كياناً مستقلاً مفرداً بذاته.

هل يمكن أن نعرف الزمن بأنه إذن الله لحدث أو مخلوق بالتجلي؟!

يستفيد الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - من الضمير المتصل «له» في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أن الأشياء والأحداث كلها قد تم خلقها وإيجادها، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وإنما يأتي إذن الله تعالى لحدث أو شيء بالظهور.

تأمل:

«يؤذني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار».

أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الربا ولحوم السباع

الربا محرم في شريعة الإسلام وفي الشرائع السماوية السابقة، فنحن نعلم من القرآن يقيناً أن اليهود قد نهوا عن الربا.

كثيرة هي البحوث التي تناولت الإشكاليات الاقتصادية للربا، فهو في مجمله آلية تجعل الغني أكثر غنى والفقير أشد فقراً.

دعونا نتعرف إلى طبيعة الربا، فالربا في اللغة: هو الزيادة، وفي الاصطلاح الشرعي: ربا الزيادة هو أن تأخذ زيادة في تناول تجاري من البضاعة نفسها، فإذا أعطيت إنساناً ذهباً بشكل معين، وأخذت أكثر منه أو أقل فهي صيغة ربوية، وكذلك الحال في الأصناف الربوية الستة التي أوضحها الرسول ﷺ في الحديث المعروف.

أما ربا النسئئة فهو قرض مضمون للمقرض مع زيادة على المقرض.

إذاً يمكننا أن نقول: إن الربا هو مال ولد ما لا دون عمل، والعمل هنا إما أن يكون بدنياً كالحركة أو ذهنياً كالأفكار والمبادرات أو نفسياً، كالقلق في المغامرة، فالصفقة الربوية تضمن الزيادة دون أي نوع من العمل، وكأن الإسلام عندما حرم الربا وحرّم القمار يريد أن يعيش الإنسان في حد محسوب من المغامرة، فلا يجوز له أن يعيش دون أن يشارك بني الإنسان تحمل المغامرات، ولا يقبل منه أن يتقبل مخاطرة كمخاطرة القمار.

نحن نعلم أن أكل لحوم السباع محرم، ومن المؤكد أن حكمة الباري - عز وجل - حول هذا التحريم متعددة الجوانب، لكننا قد نقول من وجه خاص - ونحن نعلم

أن السباع تتغذى على اللحوم-: إن لحم السباع هو لحم تولد عن لحم، فكأن الدين الإسلامي لا يقبل قطع الطريق في دورة الحياة ذات النفع الأعم، فلحم الأنعام تم بناؤه على علائق مرت بدورة زراعية عمت فائدها كثيراً من الناس، أما لحم السباع فقد نُمّي على لحم بشكل مباشر، وإن المتاجرة بالوسائل المشروعة توسع دائرة الانتفاع على خلاف الربا الذي يتولد فيه المال مباشرة بواسطة المال.

لاحظوا أن المرء منهى عنه في الشريعة الإسلامية، والمرء ليس:

استذكراً يولد فهماً جديداً.

ولا هو وعظ قد يغير بعض السلوكيات.

وليس جدلاً قد يؤدي إلى الاقتراب من الحقيقة.

وليس تفاوضاً قد يوصل إلى صفقة ما، إنما هو كلام يولد كلاماً دون فائدة، بل في الغالب يوصل إلى الشحناء والتباغض.

المرء في اللغة: مأخوذ من الاستمرار في استدرار حليب الأنعام بعد انتهائه وفراغ الضرع من الحليب، وهو بذلك استعارة بليغة، فقد يتولد عن هذه العملية دم.

وتأمل أيضاً الغيبة، فهي حديث يولد حديثاً دون فائدة، فهو أيضاً حديث محرم.

إذاً، أحد مقاصد الإسلام الكبرى في التعاملات على مختلف أنواعها هو توسيع دائرة الانتفاع، وكلما اتسعت هذه الدائرة كان العمل أحسن، فالربا مال تولد عن

مال، ولحوم السباع لحم تولد عن لحم، والمرء كلام تولد عن كلام، وجميعها غير مقبولة في شريعة الإسلام.

إدارة الفراغ

١٠

إدارة الفراغ

«تتمدد الأشياء لتملأ الفراغات المتاحة أسرع مما هو متوقع».

هذا قانون من قوانين الهندسة الصناعية منذ سمعت عنه قبل عشرة أعوام، وأنا أتتبع مصداقيته، فوجدته على درجة عالية من الموثوقية.

عند النظر في الفراغات المكانية المتاحة في منزلك تذكر كم استغرق من الوقت أهل بيتك ليملؤوا مستودعاً جديداً في منزلك، غالباً ستصيبك الدهشة للسرعة التي امتلأ بها المستودع الجديد، الأمر نفسه ينطبق على الأدرج في دولايب اشتريته توّاً أو مظلة في مزرعة، أو مكاتب جديدة في موقع عمل، أية كان الفراغ المكاني، فإن الأشياء من حولنا تتمدد لتملأه بسرعة.

وإدارة الفراغ المكاني واحدة من أبرع المهارات الهندسية وأكثرها أهمية، تأمل الطائرة أنبوب لا يصل طوله إلى خمسين متراً وعرضه أقل من أربعة أمتار وارتفاعه قرابة مترين، صمم من الداخل ليستضيف أربع مئة مسافر تقريباً بامتعتهم، ويوفر لهم وجبتين وأحياناً أكثر من الطعام والمشروبات الباردة والساخنة، ومخازن لثيابهم ومكتبة لجرائدهم ومجلاتهم وخزائن للحفهم ووسائدهم مع دورات المياه ووسائل الترفيه البصرية والسمعية، باختصار كل ما يحتاجون إليه أو تعودوا على استخدامه في منازلهم أو مكاتبهم في يوم كامل، كل مرة أسافر بالطائرة مسافات بعيدة تأسرنني براعة المهندسين في الاستفادة من الفراغات المكانية.

الأمر نفسه ينطبق على إدارة الفراغ الزمني، فالقانون الذي استفتحننا به هذا المقال يصلح في اعتقادي للتطبيق على الفراغ الزمني، فعندما يتاح فراغ زمني غير

مستغل، ستمتد الأنشطة قليلة الفائدة، وربما الضارة، كمشاهدات التلفاز مدداً طويلة أو الحديث في الهاتف أو إدمان قراءة الجرائد، وإذا لم يمتلئ الفراغ المتاح بمثل هذه الأشياء فقد تتمدد إليه أنشطة أحياناً بالغة الخطورة، مثل أحاديث النفس المرضي والأوهام والوساوس، بل ربما يصل الأمر إلى الاكتئاب والقلق، وهو في اعتقادي تبرم رهيب بمرور الزمن.

عندما يتأمل الإنسان فروض الصلاة يصاب بالدهشة والذهول من قدرة هذه الشعيرة العظيمة على التمدد والانكماش بحسب حال الإنسان، فرجل الأعمال المشغول جداً، سواء في حلّ أو ترحال لن يحتاج في اليوم والليلة إلى أكثر من ساعة في حال الإقامة، وربما نصف ساعة فقط في حالة السفر للوفاء بركن الصلاة أو أداء فريضة الصلاة مع مرونة كبيرة في التوقيت، بل غالباً ما تكون مواعيد الصلاة في أوقات فراغات مبرمجة من غير المسلمين، ومن دون وعي بذلك.

وفي المقابل تتمدد الصلاة في حياة مسن متقاعد لتشغل يومه بالكامل، ومن عاش مع والد كبير أو شيخ هرم يدرك ذلك، فهو يستيقظ قبل صلاة الفجر، وينتظر طلوع الشمس؛ ليؤدي ركعتين، ثم يصلي الضحى في أول النهار، وما يكاد يرتاح قليلاً حتى يسأل عن أذان الظهر، وبعد قيلولة قصيرة يستيقظ للعصر، ويستقبل القبلة في آخر النهار في انتظار المغرب، وغالباً ما يؤذن للعشاء بعد فراغه من تناول وجبة العشاء.

تتمدد الصلاة، وتنكمش مع يوم المؤمن بحسب ظروف حياته مشكلة وظيفية رائعة للدفاع عن وقته من أن تمتد إليه أي أمور ضارة، ومن خبر حياة المسنين من غير المؤمنين يدرك صعوبة حالهم، عندما يتقاعدون، وتطول الأيام والليالي عليهم، وبخاصة إذا انفض عنهم البنون، ولم يكن لهم زوج يؤنس وحشتهم.

الأسعار فلسفة حياة

||

الأسعار فلسفة حياة

كان المسافرون من مجتمعتنا في الماضي القريب «قبل ثلاثين سنة» عندما يعودون - خاصة من البلدان الغربية- بانطباعاتهم ومشاهداتهم ، أكثر ما يثير دهشتهم عمران المدن ووسائل النقل والمخترعات، وكذلك طبيعة التعامل البشري، أما الآن فبدأت هذه الروايات تفقد بريقها؛ لأنه أصبح لدينا مثلما لديهم أو أفضل من المباني والطرق والأجهزة، وأصبح أكثر حديث العائدين عن الأسعار في البلدان الأوروبية، فأسعار السلع والخدمات في تلك البلدان هي صدمة لمن لم يسبق له السفر هناك مؤخراً، والعائدون من السفر للمرة الأولى يبدؤون الحديث عن الأسعار باندهاش، ويضطرون أحياناً إلى طلب الشهادة من بعض المرافقين أو الاستعانة بفاتورة؛ لإثبات صدقهم، وينتهي غالباً هذا المجلس بحمد الله وشكره على ما أنعم علينا من رخص الأسعار وسهولة الحصول على السلع والخدمات.

شكر الله -عز وجل- واجب على كل حال، وليس من العقل إنكار أو تجاهل ما فوق المادة من أسباب لانعلمها، وتصنف بأحيان كثيرة في خانة «البركة» إلا أنه مع تسليمنا بكل هذا لا بد أن نسأل أنفسنا عن الأسباب التي جعلت بلاداً رخيصة، مثل البلدان الأوروبية تصل فيها أسعار السلع والخدمات إلى هذا المستوى، وهذه ثلاثة أمثلة بسيطة:

متوسط السعر على مدار العام "مدينة أوروبية"	متوسط السعر على مدار العام "الرياض"	الصنف
٧ ريالاً	١ ريال	علبة ماء صالحة ٣٠٠ ملم
٢٢ ريالاً	٥ ريالاً	كيلو طماطم
١٣٠ ريالاً	٢٠ ريالاً	مشوار ربع ساعة في سيارة أجرة

تستطيع أن تستمر في القائمة دون اللجوء إلى الإحصاء، وتستطيع القول: إن أي سلعة أو خدمة في البلدان الأوروبية تقدم بخمسة أضعاف قيمتها في دول الخليج، ما الذي يجعل بلدان الأنهار والبحيرات تبيع للمستهلك المياه المعبأة بهذا السعر، والسؤال نفسه على بقية السلع؟ في رأيي أن هناك ثلاثة أسباب فلسفية تكمن وراء الموضوع:

الأول / الاستدامة: تفكر الشعوب المتحضرة في إدارة حياتها بطريقة مستدامة، بمعنى أنها تستهلك مصادرها و ثرواتها الطبيعية بطريقة تكفل استدامتها، ومن ثم تضع لهذه الثروات أسعاراً (من خلال الضرائب المضافة أو تكلفة الحصول على المادة الخام) تكفل الاستهلاك الرشيد لها، وتضبط القوانين العامة مسألة الاستدامة، فأخشاب غابات السويد على سبيل المثال تدار بطريقة تكفل بقاءها واستدامتها، بحيث إن ما يقطع منها يعوض بنمو البديل.

ثانياً/ المساواة: تضع هذه الدول حداً أدنى للأجور ومستوى السكن بجعل تكلفة العنصر البشري في أي منتج (سلعة أو خدمة) مرتفعاً، سواء كان عامل بقالة أو نادلاً في مطعم، وفي مقابل ذلك تقوم العمالة الوافدة الرخيصة جداً بإنتاج وتسويق السلع والخدمات في الدول الخليجية.

وفيما يخص قطاع النقل بالذات تتنافس الدول الأوروبية على رفع نسبة استخدام النقل العام، وتطور من آلياته التي تدعم هذا التوجه، وقد حضرت مؤتمراً عن النقل العام في فلندا عام ٢٠٠٧م، فدهشت لحجم الجهود التي تبذل لدعم الناس

وتشجعهم على استخدام النقل العام، وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت أزيد من ٨٠٪ من الرحلات اليومية في مدينة مثل باريس عن طريق النقل العام ومن الآليات المطورة ما وضعته مدينة لندن من حزام إلكتروني حول وسط لندن تدفع بموجبه السيارات التي تعبر هذا الحزام رسماً مالياً، ومما يثير الدهشة أن بعض البلديات الأوروبية الآن تتفاوض مع أصحاب مشروعات المباني بطريقة عكس ما يتم في بلداننا، حيث يسعى المطور لزيادة عدد المواقف، وتضغط البلدية في الاتجاه المعاكس رحمة بالناس والبيئة من سلطة السيارة الخاصة، وينظر هناك إلى النقل العام بوصفه أحد مظاهر المساواة، وهو بحق من أهمها فلا شيء يثير الشعور بالتكافؤ مثل استخدام وسيلة نقل عام؛ إذ السيارات الفخمة تستفز أحياناً ذوي الدخول المتدنية.

ثالثاً/ البيئة: صدم العالم الغربي بالآثار المدمرة للبيئة التي سببتها الثورة الصناعية، وفطن منذ عقود عدة إلى الأخطار الكبيرة التي تهدد هذا الكوكب من انبعاث الغازات واحتراق الوقود الأحفوري، ومنذ ذلك الوقت وحكومات تلك الدول تسن التشريعات، وتهتم بهذا الأمر على المستوى الوطني والدولي على الرغم من تمتع بعض تلك الحكومات مثل الولايات المتحدة الأمريكية من التوقيع على المعاهدات التي تحد من هذه الانبعاثات، وقد أصبحت البيئة أحد أكثر الشؤون العامة أهمية بالنسبة إلى العالم المتحضر، ودخلت الضرائب الموجهة للإصحاح البيئي في معظم المنتجات، ومن ثم رفعت تكاليف السلع والخدمات، ومما يثير الإعجاب أن قيمة التخلص الآمن من ثلاجة أو غسالة أو سيارة في اليابان تضاف مقدماً على ثمنها، بحيث تذهب هذه الأموال إلى الجهات المعنية بإدارة النفايات الصلبة.

وقد يلاحظ الزائر لهذه البلدان أن الناس تستهلك حاجتها فقط، ولا تبذر، ولا تعبث بالأطعمة أو تتسلى بقيادة السيارات، كما يحدث عندنا، إذاً فالأسعار فلسفة حياة.